ثورة الوعي بين مركزية الأيديولوجية وهامشية الواقع في رواية المهاجرون الأبديون "مليكة مقدم"

A revolutionary conscience between the centralization of ideology and the marginalization of reality the novel of les hommes qui marchent "Malika mokeddem"

طالبة دكتوراه سمراء جبايلي

مخبر المتخيّل الشفوي وحضارات المشافهة والكتابة والصورة، جامعة الحاج لخضر باتنة 1

samerdjebaili@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/11/27 تاريخ القبول: 2020/08/22 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص:

تسعى الكاتبة مليكة مقدم في نصها المهاجرون الأبديون إلى وضع سلسلة لا متناهية من دوائر الفتك بسلطوية الرجل، ومكانة حكمه السابقة. فهي تريد لكل شخوص عملها السردي أن يتحدَّوا فكرة الخضوع والخنوع على اعتبار الثورة على المستوى الفكري هي الأصلح لتحقيق تجانس قوي بين ما يعرف بالوعي والحقيقة، محاربة في ذلك كل الأيديولوجيات التي يمكن لحقبة زمنية معينة ليس فقط تبنيها، بل تتعداها إلى تطويرها لتصبح نموذجا فكريا غير قابل للتغير والتسوية بتاتا. ثورة الوعي إذن ما يساعد سلسلة الأدوار السردية من التحرك بسلاسة ضمن منطق السرد. كما أنها هي المحرك الأساسي الذي تتغذى منه جل الشخوص التي تتناوب داخل المعمار الروائي من أجل هدف واحد هو التحرر من أيديولوجيات سائدة غير قابلة للتبدد.

الكلمات المفتاحية: الثورة ، الوعي ، الأيديولوجيا، الهامش، المركز

Abstract:

The writer Malika Mokadam, seeks in her text to create an endless series of circles calling for the elimination of male power. She “the writer” wants all characters of narrative work to go beyond the idea of submission because the revolution at the intellectual level is the best to achieve a strong homogeneity between what is called awareness and truth.In this

case she fights all the ideologies that a certain era can not only adopt, but extends to develop it to become an intellectual model that cannot be changed at all.So revolutionary consciousness is the main engine upon which most of the characters are united for the sole purpose of liberating themselves from immortal ideologies

Keywords: revolution, conscience, ideology, center, margin

مقــدمة

تقدم الروائية "**مليكة مقدم**"* في روايتها " **المهاجرون الأبديون** " **" Les hommes qui marchent**" تحليلا للكيان الوجودي للمجتمع الجزائري والصحراء بخاصة، أين تسلط الضوء على نسق فكري مهيمن في مجتمع تقليدي. يرى المرأة مخلوقاً لا إنسانياً ممنوعا من الحرية والتفكير والقول لها فقط حياة البؤس.

كتبت الكاتبة في نصها - المهاجرون الأبديون - دون خوف وتحت أي ضغط متحدية الممنوع في رواياتها وهو ما يشير إليه مضمون أعمالها الروائية من توليد للثورات ضد النظام الأبوي الذي يفرض هيمنته واضطهاده للمرأة في أسرتها وداخل مجتمعها. فالكاتبة تستنكر هذا الاستعباد والخنوع لسلطة المذكر، وعدم قبول العديد من القيم والعادات الاجتماعية في الجزائر، وبخاصة في منطقة القنادسة.

ففكرة تحرر المرأة هو ما دفع "**بمقدم**"للنضال من أجل المساواة بينها وبين الآخر، وهو كذلك ما أخرجها من صمتها، إذ إن المجتمع قد وضع المرأة في خانة الهامش والرجل في خانة المركز باعتبار الأخير كيانا رفيعا في مقابل المرأة كيانا دونيا، لكون المجتمع الجزائري لديه خاصية ثقافية اجتماعية مبنية على قيم ومبادئ وانتماءات أيديولوجية صنعها المجتمع في نظرها - الكاتبة- لذا وجب هدم عبودية المرأة وضرورة الاعتراف باستقلاليتها وبحقوقها، النضال هو ما أيقظ ثلة من النساء للدفاع عن مطالبهن للتحرر من التبعية.

وعليه لا يمكن الخروج من دائرة التهميش إلا إذا حدثت تغيرات ثورية ضد النظام المجتمعي بعامة والأسري بخاصة، وهذا لا يتأتى إلا بازدياد الوعي –وعي المرأة- فامتلاكها لوعي حقيقي هادف نحو التغيير يدفعها لتجاوز كل الشعارات الإيديولوجية المفروضة عليها. فالثورة التي تبنتها "مليكة مقدم" هي ثورة اجتماعية، وثقافية متحلية بالوعي والفكر.

وهو ما اهتمت به الكاتبة في نصها الموسوم"المهاجرون الأبديون"من وصف لعوالم الصحراء، فأهلها يتميزون بالذكاء الحاد والشجاعة والتسامح والكرم وكما تشكل معاناتهم جانبا أخر من حياتهم بسبب الاستعمار الفرنسي من جهة، ومن القهر والفقر والجهل والسلطة الأبوية من جهة أخرى، كما تبدي اهتماما خاصا بالعنصر النسوي الذي يعاني من التبعية للآخر (الرجل) والمكانة الدونية التي طمست ألوان حياتها فنجد كل شي محرما ممنوعا ممثلا في شخص: (ليلى- سعدية – يامنة والدة ليلى- زينة...)، أما شخصية ليلى الراوي العالم بكل شيء، فهي امرأة تحمل من القوة والمعرفة والوعي ما يجعلها متحررة متمردة.

الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة: هل يمكن للثورة أن تعطي مساحة خاصة للمرأة لتجاوز النظام الأبوي الذي اعتبرها صوتا مهمشا متمردا؟، وهل للوعي سلطة على تغيير الأيديولوجيات السائدة والمتمركزة حول إقصاءها كذات فاعلة؟ ، كيف يمكن أن تتحرر الذات من التبعية للنظام الأبوي وهيمنة السلطة لها؟. ولمقاربة هذه الأفكار نعتمد على مجموعة من الآليات النقدية.

1- ثورة الوعي لدى الشخصيات عبر التاريخ:

تعتبر "مليكة مقدم" من الروائيات الجزائريات اللائي عمدن للكتابة بلغة الآخر - الفرنسي- فجاءت أعمالها متنوعة في طرح الموضوعات وفي مقدمتها -المرأة- التي حاول النظام الأبوي تفريغ مطالبها من مضمونها الأساسي المتمثّل في المساواة، فكانت "مليكة مقدم" ولازالت تحارب الفكر الذي لا يرسم إلا صورة نمطية للأنثى باعتبارها سجينة العادات والتقاليد .

وتستند الروائية "مليكة مقدم" في روايتها هذه على الذاكرة لسرد نضال المرأة الجزائرية في ظل الاستعمار الذي حكم عليها بالسكوت والمجتمع بالخرس، فكانت الكتابة السلاح الفعال لمحاربة الظلم، والتعسف ،والتهميش وتجاوز العقبات والحفاظ على هويتها النسوية وهويتها العربية كونها غريبة عن لغتها الأم -العربية- هو ما يعادل بداية تشكل الوعي واتساع دائرته في الرواية بدءا بشخصية الجدة "زهرة " المرأة العجوز الحكيمة التي لا تأبه للعمر فهو مجرد أرقام "**لسنوات، ظلّ عمرها خمساً وسبعين سنة. فهل زاد عشرا أو اثنتا عشرة أو خمس عشرة سنة؟ لم تكن زهرة تحتفل إلاّ بحياتها البدوية التي اقتلعت منها**"[1].

إنّ الاهتمام بالعمر هو فكر الحمقى حسب رأيها؛ فالشباب ليس منحصرا في رقم إنّما في القلب، وفي العقل المحمل بذكريات الماضي وحكاياته.

إنّ الجدة على يقين تام أنّ البحث عن الحقائق لا يكمن في العمر، بل في الأفكار التي نحملها ونتبناها بشكل صحيح للمضي قدما. الجدة امرأة واعية محنكة متميزة لا تملك الكمال إنّما تملك المعرفة والحكمة، وهو ما استهلت به الروائية نصها لتؤكد لنا أهمية الوعي بكل أنواعه (اجتماعي، سياسي، ديني، أخلاقي، ثوري) هذا **الوعي** Conscience: تتعدد مفاهيمه مابين الإدراك، والعقل، الفكر.، اليقين يعرفه "لالاند" كما بين "هاميلتون" أنه "لا يمكن حدُّ الوعي، إنّما يمكننا أن نعرف حق المعرفة ما هو الوعي، ولكننا لا نستطيع إبلاغ الآخرين، وبلا التباس، تعريفا لما نكتهنه نحن اكتناها واضحا، إنّ علة ذلك بسيطة هي: أنّ الوعي أصل كل معرفة." ..."هو ما نكون عليه، أدنى فأدنى، عندما نقع وقوعا تدريجيا في نوم بلا أحلام... وما نكون عليه أكثر فأكثر، عندما توقظنا الضجّة رويدا رويدا، هذا ما يطلق عليه اسم الوعي"[2] فالوعي هو توفر الشروط اللازمة لتنبيه العقل نحو ما يوجد وما يتوافق ومنطق العقل.

وورد في المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية الوعي سيكولوجيا: "هو إدراك المرء لذاته وأحواله وأفعاله وإدراكا مباشرا، وهو أساس كل معرفة، وله مراتب متفاوتة في الوضوح، وبه تدرك الذات أنها تشعر وأنها تعرف ما تعرف"[3]؛ هو يعني به دراية الفرد لكل ما يدور حوله تبعا لما يعيشه من تجارب، فكلما زادت تجاربه زادت معرفته. كما حال الجدة زهرة وهي تؤكد حاسمة: "**وُلدت في عام الجفاف الشديد. سنة كاملة دون قطرة ماء!**"[4]. الصحراء المكان المعروف بالجفاف وشدة الحرارة، هو أمر طبيعي وليس بالغريب. لكن ما توحي به عبارة الجدة أنّ من يعيش بالصحراء يمتلك القوة، والصبر وإلا "**كيف بالإمكان تصوّر قضاء الوقت في مشهد ثابت كالصحراء،... لاشيء يصمد أمام شطط الصحراء**"[5].

إنّ اعتماد الروائية مقدم على عالم الصحراء الذي يتميز بجماله وسحره الغني بالأسرار والخبايا والحكايات الأسطورية التي تميزه، وكذا فضاءه الواسع الذي يوحي إلى البحث عن مصير مجهول لامتداده اللانهائي الذي يشكل بؤرة الصراع لأجل البقاء والاستمرار ، هو ما دفع بسكان الصحراء إلى عيش حياة الترحال.

يتميز سكان الصحراء بالتنقل من مكان إلى آخر بحثا عن حياة أفضل للاستمرار لأنّ نمطهم المعيشي يجبرهم على الترحال تقول الجدة زهرة: "**نحن ننحدر من القوم الذين**

يسيرون. كانوا يسيرون. كنا نسير. .. بشرات ملفوحة بشظايا رياح الرمال..."[6] فالجدة زهرة تقصد الترحال الذي ينفردون به دليلا على قدرة التأقلم مع كل الظروف الاجتماعية، والملائمة من الناحية الإنسانية.

في نص الروائية مقدم نجد ثلة من الشخصيات عمدت إلى التغيير والثورة فكلمة ثورة يراد بها "الغضب، الانفعال، التمرّد، العصيان، هِياج، الفوضى، الشغب،..." يقول العرب **ثوَرتُه، وثور الغضب**: حِدّته. **والثائر**: الغضبان، ويقال للغضبان أَهْيَجَ ما يكون: قد **ثار ثائِره** وفار فائرُه إذا غضب وهاج غضبه، وقولهم رأيت **الماء يثور** من بين أصابعه أي ينبعُ بقوة، **وثوّر فلان** عليهم شرّا إذا هيجه وأظهره، ويقال **أثار الأرض** : قلبها.[7] وعليه نلاحظ أنّ كلمة الثورة تحمل معانٍ متعددة تصب جميعها في طبيعة وشعارات الثورة المبنية أساسا على الوعي الذي يقود نحو التغيير سواء في الأفكار الفردية أم الجماعية فتبدأ الثورة بالغضب والتمرد والعصيان لتنتشر وتتسع وتقلب الأوضاع ليعلو صوت الثائر باحثا عن التغيير المرغوب فيه، لكن لكل طريقته إما اعتماد العنف والقوة أو العقل والصبر.

إنّ حياة الفقر والانعزال التي يعيشها سكان الصحراء، بالإضافة إلى تنقلهم من مكان إلى آخر زادهم وعيا وتفتحا، بدءا بشخصية "جلول الآجالي"،الذي تروي لنا الجدة زهرة حكايته، لتليها "سعدية" و"ليلى".

1-1 ثورة الوعي عند بوحلوف:

اختارت الكاتبة شخصية "**أبي حلوف**؛ أي صاحب الخنزير" كلقب"**لجلول الآجالي**[8]" ونموذج أولي يعادل الوعي لواقع المجتمع، ومحاولة للخروج عنه والتغيير ، ورفض الرضوخ لقانونه المستبد، وهو بمثابة إعلان عن بداية الثورة ضد العادات والتقاليد عند "**جلول** "، وانتهاك لقيم الدين، والتنكر لأصله، فالثورة تتعدد بتعدد مفاهيم الشخوص لها فلكل طريقته في التعبير.

ثورة "**جلول الآجالي**" الملقب بأبي حلوف بدأت بالعقل عند اكتشافه لأهمية العلم والتعلم لأنه "**لم يسبق للصبي أن سمع بالكتابة؟**"[9]. هو بداية تجلي اليقظة الفكرية لدى جلول، ومحاولة منه لفهم وتحليل عالمه؛ فهو كان يعيش في اللاوعي، وبانت الرغبة في الاكتشاف والسؤال "**كيف بإمكان هذه الأحرف الجامدة أن تحتوي هذا القدر من القصص**

والحبكات والمعارك والروائع؟ "[10]. فهو لا يعرف شيئا عن عالم القراءة والكتابة فالمجتمع تحكمه الأمية التي وضعها الاستعمار ورسخها المجتمع.

هي دلالة سلبية على اضطهاد الآخر -المجتمع- له حين اهتم بتعليمهم الفروسية والمحاربة وغفلوا عن العلو بهم في أفق العلم، فكل ما يميز عالم الصحراء هو الترحال والسير بين المدن " **يسيرون منذ شروق الشمس وحتى هبوط المساء مكتفين بالصمت وملتحفين بالنور. وعندما يتعبون، ينصبون الخيمة ويقتاتون بالقليل،... حين يصير جسدهم القليل اليابس غبارا، يواصل الآخرون المسير حياة بأكملها. ارتحالهم يخلد الصحراء"**[11]. هو جل ما يميزهم، وما يقلق جلول الملقب بأبي حلوف وجعله يشعر بالخوف من أن يلقى مصيره كأقرانه، ويعيش حياة بائسة جامدة، فقرر تغيير نمط عيشه وتفكيره، وبدت له رغبة شديدة في التعلم والقراءة والكتابة، وكيف له تخطي قانون العشيرة وإقناعهم بالأمر "**إنّه الشذوذ بعينه. لقرون خلت لم يلجأ أيُّ من العشيرة إلى الكتابة،...وتاريخنا لا ينام بين المحبرة والورق بل ينقب ذاكرتنا"**[12] الاعتماد على العالم الشفوي في الحياة، هو ما زاد من إصرار أبي حلوف في التعلم، فهو حسب الروائية شخصية عنيدة لا تحب العيش تحت قيود وإكراه ذوو العقول المظلمة، لذا لا بديل عن الخروج على الأعراف السائدة، وفعل كل ما يحقق الحرية الفعلية والّتي من أوّل مكوناتها "هو حرية الفعل: القدرة على فعل ما نرغب في فعله دون أن نكون ممنوعين من ذلك بإرادة الآخرين" [13]. المنع يكبح الإرادة.

إرادة جلول تتعارض وأفكار مجتمعه لكن رغم كل هذا أقنع القوم لتقبل ما يصبو إليه. لكن التفكير خارج الأعراف واختراق المعقول إلى اللامعقول هو ما يرفضه المجتمع جملة وتفصيلا، بخاصة إذا ما تعارض مع العادات والتقاليد. فحياة الحضر لا تشبه حياة البدو، لكن جلول "**كانت حياة الحضر تستهويه، فيذهب للتسكع غالبا في أزقة المدينة،...كل مكان مسكون بعطر امرأة مجهولة"**[14]. بداية الخروج عن المألوف ومحاولة إنشاء قوانين خاصة بنمطه المعيشي والذي أكيد سيكون موافقا لإرادته ومخالفا به لإرادة المجتمع.

تعتبر أول حالة فساد عاشها جلول خروجا عن المألوف، الغرق في الشهوة والمتعة حيث كان "**يجلس أمام الحمام يترصد خروج النساء ويتنشقهن بملء رئتيه مسحور**

النظرات، مرتعش الجسد"[15]. الفساد الروحي للفرد وهو ما كانت العشيرة قلقه بشأنه؛ لأنّ طريقة عيش جلول تسيء للعشيرة أولا ولعائلته ثانيا..

السعادة التي يعيشها جلول الآن هي تعاسة وقهر وألم لعشيرته وبخاصة التنكر للأخلاق والدين، وكأن الطريق الذي رسمه جلول لنفسه لتحقيق رغباته هو رسالة لمجتمعه. بمجرد خروج الفرد من دائرة القبيلة والعشيرة تتغير حياته ، أما بخصوص العادات والتقاليد فهي زائلة، كونها موروث ثقافي اجتماعي يمكن تغييره بتغير المجتمعات، لكن جرأة جلول الملقب بأبي حلوف تلاقي معارضة قوية من العشيرة، فالتغيير يأتي بعواقب لا يحمد عقباها حسب رجال العشيرة، ومنعه من العيش في هذا العالم الغريب المخالف لقيمهم ، وإجباره على تغيير نمط حياته بالقوة حوّل تفكيره من العقلاني إلى التّمرد والغضب، فهو رافض لحياة اليأس، والتفكير المحدود، والعقل المتحجر ، ولا شيء يجبره على تحمل هذا الجحيم، فالتغيير إلزامي، أوّل شرارة منه كانت تربية الخنزير "**كان خنزيره يكبر ويتبعه أينما ذهب لا أحد يجرأ على الإساءة للبهيمة وإلا تعرّض لغضبه**"[16].هذا يخالف الدين لأنّ هذا الحيوان في الدين حرام تربيته وأكل لحمه؛ وعليه لقب "**بأبي حلوف**" . وزاده الأمر إرادة وعزما وقوة على مواصلة طريقه في البحث عن الحرية.

تنقل "جلول" إلى العديد من المدن بحثا عن حياة جديدة وصديقه الحلوف لضمان بقائه متأثرا بقصص ألف ليلة وليلة التي تحكي قصصا خيالية أسطورية، يميل أكثرها إلى الخوارق، والأعاجيب، ويتصل أقلّها بالواقع، وأكثر ما سحر بها هو أنّها تحمل أراء وغايات متنوعة بتنوع البيئات التي عاشتها، وهي نافذة يطل من خلالها على الحقبة المظلمة للواقع والنظام بعامة.

ويرى أبو حلوف أن المعارف تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، وعلينا تجاوز المعرفة العاميّة التي لا تتجاوز التجربة اليومية للفرد، فمعرفة العالم تسهل التآلف معه، وبالتالي استمرار البقاء، وكل هذا لا يكون إلا باستعمال الثورة والوعي ضد كل ما هو مناف للتغيير . فهذه الثورة ألبسته لباس العظمة والتفاخر ، وأصبح يلقب بـ "**سي حلوف الآجالي**"[17]. وخرج من حياة العذاب والفقر وأصبح رجلا ثريا، تزوج وأنجب وصبيّين "محمد "و "حمزة". هكذا غدت

شخصية "**جلول الملقب بأبي حلوف**" غريبة، نادرة، متحلية بالقوة، والخروج عن المألوف الذي يراه البعض تمردا والبعض الآخر فخرا، وتحرّرا وانعكاسا لوعي متحرر.

2-1 **ثورة الوعي عند سعدية:**

بالعودة لنص "المهاجرون الأبديون" تتضح شخصية "**سعدية**" ابنة بوحلوف الثاني "محمد" امرأة طيبة، تتملك الصبّر ،وتتميز بالإنسانية لقد"**كانت سعدية بشهادة الجميع طفلة رائعة لكنها شديدة الكآبة**"[18].حرمتها الحياة من والدتها ومن العيش في كنف أسرة ملؤها الحنان والعطف، تموت أحلامها البريئة وتصطدم بالواقع المر ومعايشة الاضطهاد من طرف المجتمع والأسرة، وبخاصة من زوجة الأب "**عائشة**"، فالروائية تميط اللثام عن شخصية "**سعدية**" لتسرد ظروف نشأتها ومعاناتها في شتّى ضروب الحرمان والذل. مما دفعها للهروب لتقع فريسة لوحش بشري "**هربت سعدية من الحقد لتقع في شرك العنف والنذالة**"[19].

فالكاتبة تحاول رسم الصورة النمطية التي تؤرق المرأة، وتُبقيها حبيسة الثّقافة الذكورية السلطوية التي نصبت نفسها وصية عنها، وجعلتها خانعة وخادمة لها، فهي خاضعة للنموذج الأخلاقي الذي يمليه عليها المجتمع،ف "**عذرية الفتيات ليلة الزواج مبدأ مطلق في تقاليد العشيرة**" [20]، وعليه تصبح المرأة نكرة وطرفا سلبيا في المجتمع، بخاصة إذا تعلق الأمر بالجانب الأخلاقي من حياتها وحتى الاجتماعي منه.

كما أنّه يمنع عليها الخطأ، لأنّ السيادة والقوة للرجل وحده فهو المركز؛ "النموذج الأمثل والمكتمل الذي يحتذي به يحق له"[21]، إنّ اختراق المحظور في ارثنا الثقافي وخلفيتنا العقائدية يعد جريمة، وإن حدث وتعرضت امرأة لحالة اغتصاب وحشي، فالملام الوحيد هو المرأة، تقول سعدية: "**كيف يمكنني العودة إلى البيت بعد الذي حدث. سيقتلونني. ما من شك. أين الذهاب إذاً؟**"[22]، وتكمل "**مهما قلت ومهما فعلت سيكون الذنب ذنبي**"[23]. فالأمر يعد وصمة عار على المجتمع بعامة، والعشيرة بخاصة دونما البحث عن الخلفيات المسببة لهذا الاعتداء الوحشي للجسد، ويندرج هذا الوضع " بصفة عامة إمعانا في إذلال العقل الأنثوي وتكريسا للمركزية الذكورية كأمر واقع"[24].

إنّ استمرارية هيمنة النسق الفحولي وتهميش الصوت الأنثوي دفع بسعدية لتبني وعي مضاد للخروج من ضيق المجتمع، وفي صورة رفض قاطع للجرائم التي تحاك ضد شرف المرأة

فتحول يأس "**سعدية**" إلى غضب مسعور تقول سعدية: " **كل هؤلاء الحمقى الذين يعتقدون أنّها لن تحظى إلا بعيشة مُومِس. ستقتلع لهم أعضائهم، مضرمة النار في هذا البيت وصولا إلى المدينة، ستدمر كل شيء حتّى تشق لها مخرجا وإلاّ تدمّر نفسها**"[25]. أن ترضى امرأة العيش كعاهرة تتكسب بفجورها هو ما لن تقبله سعدية على نفسها، وستتغلب على ضعفها وتتدارك ذاتها لبناء هوية جديدة لها بعيدا عن النظام الذكوري.

على المرأة أن تكون على قدر كبير من الوعي لتثور وترفع الوصاية عنها، بالمواجهة وعدم الهروب من الواقع، وكبداية لدى سعدية "**كتبت رسالة إلى أبيها وكشفت له عن حقيقتها**"[26]. لكن الأمر لم يشفع لها، فرجال العشيرة يرفضون سماع أخبارها هو ما زادها إصرارا على تحقيق ذاتها لأنّ "**الرجال ماتوا أيضا بالنسبة لها**" [27]. كشفت الوعي الذكوري الزائف، وأسقطت قناع المجتمع الساذج، وهذا يسمح لها بممارسة تمردها وثورتها ضد كل ما يدعو لاستغلالها وقهر ذاتها، وأن نحيا معناه: "**أن نكون قساة وبلا رحمة بالنسبة لكل ما هو ضعيف وبال فينا**"[28]. فالواقع يدفعنا لنكون كذلك ولا نقبل بغيره قطّ..

إنّ وعي سعدية بأن هذا العالم الذي تعيش فيه هو زائف لأنّه تأسس وفق الفكر الذكوري ووفق ما يخدم مصالحه الذاتية، هو ما دفع بها لإبطال هذا الوعي الزائف وإثبات مكانتها فانعكست المعادلة من خاضعة إلى مسيطرة "**تحيّي سعدية، تصدر الأوامر وتعبر... السهولة التي تتقدم بها سعدية وسط الرجال أذهلت دوما ليلى**"[29]. أصبحت سعدية تمتلك السلطة المضادة، والتي تشكل تهديدا لمكانة الرجل كنقطة قوة للمرأة ، كما أثبتت سعدية لنا أنّ الثابت متغير بتغير الفكر الذاتي، وقبول المرأة العيش في ظلمة ذكورية هو اختيار وليس إجبار، فعلى المرأة أن ترتقي بفكرها لتصبح فاعلة في المجتمع ليصبح لها لصوت وقيمة، وازنة تؤثر في غيرها كما أثرت هي في ليلى ابنة الصحراء .

3-1 ثورة الوعي عند ليلى:

إذا كان سقوط سعدية في قبضة الوحوش الآدمية نتيجة الظروف الاجتماعية الصعبة التي عاشتها من ظلم وقهر ، واستلاب في ظل غياب الوعي، فإنّ ظهور "**ليلى**" إحدى الشخصيات الأساسية في رواية "المهاجرون الأبديون" نموذج للفتاة المفعمة بالحياة، المتحدية للصحراء.

تبدأ الروائية فصل "ليلى" بالحديث عن التهميش الأسري، بداية من ولادة بنت بدل الصّبي تقول الجدة: **"ربّما ليلى لأنّها أتتنا في الليل؟ حضّرت اسم الصبي"**[30]. حب الذكور وتقديسهم عند ولادة الصّبي الأول، كانت ليلى في عامها الرابع تقريبا، وهي هنا ترسم لنا مرحلة ما قبل الوعي، تسأل ليلى: **"لماذا يفضل الأهل الصبيان على البنات؟ ثم هذا الظلم يترافق خاصة مع حدث يفوق أهمية مجيء الأخ الصغير"**[31]. إحساس يعتري كل الأطفال بشكل كبير، وشعور الغيرة يتملكهم هو ما كرّس شعور الحرمان والتهميش عند ليلى في طفولتها، وخلق داخلها جوا من الغضب والمعاناة، نجدها تجسد لنا عبر لغتها الرافضة لكل أنواع التمييز، ولتلك العادات البائسة، فهذه الصور النمطية للموروث الثقافي الاجتماعي في صحراء الجزائر جعل النّساء أسيرات التفكير المغالط، الذي ينظر إلى المرأة نظرة دونية، وهو ما ترفضه ليلى.

أما الحدث القادم هو بداية الوعي الإدراكي لـ "ليلى" التي ثارت ضد الشعور بالخزي من قضية إنجاب البنات، والتمييز بين جنس الذكر والأنثى، أصبح جزءا لا يتجزأ من ثقافة الآباء والأمهات، فولادة بنت هو أشبه باللّعنة **"لا تُطلق الزغاريد حين تولد البنات! ... استمرت بعض العائلات في وأد البنات"**[32]. هي ثقافة خاطئة ونظرة سوداء لجنس الأنثى، يوّلد لدى النّساء عدم الشّعور بالأمان وعدم الثّقة، والسبيل إلى التّحرر من هذا التفكير العقيم هو الثورة ضد الموروث الثقافي هذا من جهة، وتجديد وعي المرأة بذاتها وأنّها إنسان له عقل وفكر يسمحان لها بنقد الواقع، وعدم تقبل الوضع الذي يحتم عليها العيش في خانة المهمش، بل لها أن تناضل من أجل البقاء ومن أجل الوجود،. والدراسة، والكتب هي الطريق لتحقيق ذلك.

إنّ الخلاص للخروج من الفكر الجامد هو العلم والمدرسة، وهي رسالة المعلّمة لـ "ليلى" **،"شيء رائع أن تتمكني من متابعة دراستك حتى النهاية. .. تمسكي بالمدرسة. إنّها خشبة خلاصك الوحيدة!"**[33]. لم تدرك ليلى بعد حقيقة ما تقوله المعلمة؛ لكنها رسالة تحمل عمق دلاليا هو ما اكتشفته ليلى فيما بعد -المدرسة رمز للحرية-.

إنّ العلم له الأثر الواسع في تحرير العقل من الأوهام، والخرافات التي تربّى عليها الفرد منذ الصغر، فشخصية "ليلى" زادت وعيا مع الكتب وأصبحت شخصيتها أقوى وأعند، وهي من عائلة بوحلوف فطفولتها ساعدتها في تكوين ذاتها، والتمرد على كل ما يخالف طموحها، ويقف في طريق خروجها من بوتقة الظلم، هذا النمط السلوكي ألبسها مكانة كبيرة في قلب جدتها؛ وحدها الكتب ميزتها وميزت فكرها.

تعيش ليلى صراعا داخليا وخوفا من المصير الذي ينتظرها إن لم تحصل على حريتها، وفكرة تزويج فتيات في سن مبكر كان الطامة الكبرى، والألم الذي يملؤها، ومآل مفرغ من الأمل كذلك تقول لعمها خليل: "**يريدون تزوجي! إن لم تمنعهم سأهرب أو أقتل نفسي لن ينالوا مني أبداً، أبداً. هل تسمعني؟**"[34]. رغبة والدتها "يامينة" في تزويجها وفقا لما يفرضه قانون العشيرة، فالسلطة للأب والحاكم الرجل، وهي قاعدة لا تتغير تقول "يامنة "أمُّ "ليلى": "**يا ابنتي، هذه المرة أبوك، وجدتك، وأنا مغلوب على أمرنا ولا يمكننا فعل شيء** "[35]. ترفض ليلى أن تلقى مصير سعدية، ومثيلاتها من بنات الجزائر. فالهروب، والعصيان هما الحل وفعلا لاذت بالفرار، وقد لاقى هروبها استحسانا وقبولا من عمتها سعدية التي سبقتها تجربة، بل زادها الفعل تمردا على العادات، وكل ممنوع أصبح مرغوبا وجائزا لها فلا فرق بينها وبين الصبيان.

لم تكتف الشخصية المحورية الفاعلة في سرد الحدث الرئيس في نص مقدم بالثورة صمتا أو تفنيد واقعها في الظلام، وإنّما قررت الانتقال من عتبة الصراع الوجودي والفكري إلى الانخراط في سلسلة من الأفعال، التي تخدم، وتعزز رؤيتها، ووعيها المختلف عن كل ما حملته رؤوس النسوة فيما تقدم آنفا عن حقيقة المرأة، وتداولها واستباحة جسدها في خدمة الزوج. فهي اختارت الدراسة كمخرج أول؛ لتنتقل لفكرة العمل وصولا لفكرة تغيير موطنها كحل محوري في قلب موازين الحدث سرديا، والفكر إيديولوجيا.

2- **مركزية الأيديولوجية:**

شكّل تطور الوعي لدى (زهرة، جلول، سعدية، ليلى،...) في نص "**المهاجرون الأبديون**" أفق انطلاق لهم، وأظهر أنّ التحرر لا يكون إلاّ بالنضال الثوري الفكري في ظل الصراعات التي سادت الواقع الاجتماعي، والسياسي، والديني، والفكري، والتي باتت تتحكم بطريقة مباشرة وغير مباشرة فيهم، نص الروائية "مقدم" يطرح قضايا اجتماعية، وأخرى دينية تتعارض وأفكار ، وآراء أبطال الرواية (جلول، سعدية، ليلى)، وكأنّ النّص يشكل ثنائيات ضدية بين (جلول /العشيرة)، (سعدية/ و المجتمع)، (ليلى/ العائلة).

لكل شخصية أيديولوجية تسعى لتبنيها وفرضها كمنطلق للحرية، فهذا النص الروائي تتوزع فيه الأيديولوجيات من بداية النص إلى آخره . بداية من حنكة وحكمة "الجدة زهرة "إلى وصف وضع أهالي الصحراء المأساوي وحياة الترحال كما وصفه "جلول الملقب بأبي حلوف" وانعدام الجانب الإنساني في العشيرة بسبب قوانينها التعسفية التي لا تخدم إلاّ فئة

معينة منهم عند "سعدية"، وكذا التشبث بممارسات تقليدية تدور في حلقة مفرغة لدى "ليلى".

فحين يبلغ فرد ما مقام الوعي، فيعني ذلك "أنّه حاضر وليس غائبا، شاهد وليس غافلا، فعال وليس كسولا، مهتم وليس مهملا، مركز وليس هامشا، يقود ولا يتبع، ينتقد وليس إمعة."[36] فالوعي هو أساس إثبات الذات، وإبراز وجودها وفاعليتها، وتعرية كل زيف، وإعادة المركزية للذات. هو تحديدا ما تدعو إليه الروائية في نصها الروائي، وكيف نتجاوز الماضي ونبني حاضرا يتأسس على المساواة بين (المرأة /الرجل)، يكفل لنا تفكيك المركزية الذكورية التي تحكمها أيديولوجية نفعية لا تقبل النقد.

فالمدلول الأساسي والأولي للأيديولوجيا هو تشكلها في الأفكار باعتبارها المصدر الأصلي . أحدث تحولا للكلمة وخرجت عن معناها الأصلي، "ولا تعني علم الأفكار. ولكن تعني نظاما من الأفكار والعواطف، والاتجاهات بالنسبة إلى العالم والمجتمع والإنسان"[37]. ويرى "محمد سبيلا" أن تاريخ مصطلح الأيديولوجيا تاريخ مضطرب منذ مولده يقول:" إلا أن اللفظ الجديد الذي وضع للتعبير عن علم جديد هدفه فهم وتفسير مصدر الأفكار، ويحل محل مصطلحي سيكولوجيا أو ميتافيزيقا المرتبطين بمفهوم ميتافيزيقي للروح، قد انزلق انزلاقا دلاليا فأخذ يعني مجموعة الأفكار والقيم والتصورات التي يحملها شخص أو هيئة، والتي تتعلق بالمجتمع والتاريخ"[38]. فلو عدنا إلى النص الروائي لـ "مليكة مقدم" نجد لكل شخصية فكرا أيديولوجيا تسعى لتفعيله، وتجسيده في المجتمع كواقع رغم أنّ هذه الأفكار تتعارض في الغالب والجانب الديني أو لا تخدم الجانب التاريخي منه، وهو ما يولد صراعا فيما بين الديني والتاريخي.

2-1 الصراع بين الديني والتاريخي:

لا يخلو نص "المهاجرون الأبديون" من الصراع بين الأفكار والرؤى بين شخوص الرواية لأجل التغيير والتحرر من التبعية إلى الفاعلية، فالنّص حافل بالمرجعيات الدينية التي تقف ضد حرية المرأة بل تبقيها في الدرجة الدونية، فكل شي محرم، وكل ما هو مخالف لتاريخ العشيرة يعد جرما، ونعني بالتاريخ هنا الموروث الثقافي الذي يؤسس لتاريخ العشيرة - عشيرة الآجاليين- حسب نص الروائية مقدم، إنّ التحول الفكري هو أساس التّطور والتحديث في الثقافة الصحراوية، وأساس الكشف عن البعد الأيديولوجي الديني فيها.

تعتبر شخصية "بو حلوف" أحد الأساسيات في الرواية والحاملة لأفكار أيديولوجية تعد بالنسبة للمجتمع هامشا يسعى بوحلوف إلى تحقيقها على أرض الواقع حتى وإن كانت هذه الأفكار تتعارض والمعتقدات، فتربية الخنزير وإعطاءه حقوقه ومكانة كما لو أنّه إنسان يتعارض والمعتقد الديني العربي الصحراوي، فهو حيوان تربيته، وأكل لحمه محرمان، لكن "جلول" منحه شأنا عظيما حين قال للقبيلة **"قسما بالله، إنّ هذه البهيمة التي ترنها أمامكم كانت فيما مضى شيخاً جليلاً من البدو في قبيلة الآجاليين، يدعى جلول، لكن لعنة قومه حوّلته في ليلة البدر إلى حلوف... وفي ليالي البدر، يستعيد القدرة على الكلام ويخبر قصته"**[39]. هي قصة تشبه قصص الأساطير التي تتحول إلى"أيديولوجيات بالمعنى الحرفي عندما تدخل في الأديان كعناصر في تركيبها"[40]، وكذا الخيال للألف ليلة وليلة كون جلول كان متأثرا بها فهو بهذه الرواية يكشف المتسلطين العابثين الظالمين، الذين رغم إيمانهم إلاّ أنهم مازالوا يؤمنون أكثر بالخرافات، والشعوذة ويعتبرون الأمر مقدسا لا يمكن المساس به ويجب التبرك بهذا الحيوان لجهلهم فقط. بمجرد انتشار تلك الأفكار من جلول أصبحت ذات وقع على عقولهم، وأصبح ذلك الحيوان ذو مكانة في أوساط الرّجال، وتمكن جلول من زرع بذرة أفكاره الأولى بنجاح.

وكأنّ الروائية أرادت أن تثبت لنا أن لا شيء يقف في وجه تحقيق المبتغى، ونشر التخلف داخل المجتمع وإن تعارض ذلك والفكر التاريخي، الذي على أساسه نحدد تقدم حضارة المجتمعات ، وتؤكد الكاتبة أن لا وجود لشيء ثابت في المتجمع مادام هناك أيديولوجيات تتصارع داخل أفراد المجتمع الواحد .

تنقد "ليلى" وبشدة المركزية الذكورية التي تبنت أيديولوجيات تخدمها هي فقط، حتى لو تعارضت والدين الإسلامي الذي أعطى للمرأة مكانتها، وهي لسيت حيوانا خلق للأكل، والمنفعة منه وقت الضرورة . هي مخلوق جاء لإشباع ملذات الرجل، فليس لها حق اختيار الزوج، ولا اختيار مصيرها. فكل ما يهم الأهل استمرارية السلالة وتزويج البنات في سن صغيرة " **ورؤية التنورة الداخلية ملطخة بالدم"**[41] هو دليل عفة المرأة، وشرف للعشيرة؛ فالجسد هو دليل طهارة المرأة، هو أغلى من روحها. هي أيدلوجية حكمت العشيرة منذ القدم بدون مبرر رغم أنها تتعارض والدين الإسلامي لكن، تخدم العشيرة، وكانّ الدين هو مجرد ورقة يتم طيها وفق الحاجة لها، وتشكيلها حسب الضرورة الملحة لتخدم ما يصبو المجتمع إليه، وسننه من صنع الأعراف البالية.

إنّ عذرية المرأة شيء مقدس، وعليه يمكن للأهل فعل أي شيء للحفاظ عليها باعتماد بعض الشعوذة، والخرافات التي كانت الأمهات تظن أنّها الوسيلة الوحيدة التي تكفل للمرأة عفتها مثلا، الربط " **يا ابنتي. عليّ التحقق من أنّك عذراء فعلاً وأن أربطك. فهذا لمصلحتك.**

- **أن تربطيني؟**
- **أجل هكذا لا يستطيع أحد أن يسلبك شرفك. ولن نحل العقدة إلا يوم زواجك**"[42].

ما أرادت مريم فعله مع ليلى هو تصرف مشين لليلى ومعيب يخالف الدين وغير معقول خرافة كرسها الجهل وأصبحت أيديولوجية يؤمن بها المجتمع فهذه الخرافات هي المركز ورغبات المرأة العنصر المهمش، فحرية الشهوة تسبق حرية الفكر وكأنّ المرأة لعنة تلحق بالمجتمع.

الدين يرفض تحقير وإذلال المرأة، لكونها ليست مجرد خادمة للرجل، ولا هي بيت للشهوة، فالزمن زمن الأيديولوجيات التي تعمد لطمس هويتها. غير أن الدين سعى إلى جعلها مكملة للرجل، لها حق الحياة والسيادة لكن، هناك أفكار تدعو لعكس ما يصبو إليه الدين، وتثمين مبدأ العنف كوسيلة لردع النساء، وكثقافة تربوية، مثل أسلوب الضرب لتأديب الأنثى. ولكن تبقى كلها أفكارا غير شرعية اكتسبها الرجل من المجتمع بالتوريث وهو ما ترفضه ليلى.

2-2 الصراع بين الفني والديني:

ترسم ليلى طريقا يضمن لها التحرر عبر كتبها حتى لا تبقى لعبة المجتمع الذكوري، فالبنية الفكرية التي يحملها وعي ليلى، تتعارض والبنية الاجتماعية التي تحاول رسمها في صورة الكائن الضعيف باسم الدين. لذا نجد الكاتبة تكشف الصراع الذي تعيشه شخصية البطلة " ليلى" وكيف لها التخلص من أوهام العادات ، فالتحصيل المعرفي مكّنها من تجاوز عوالم الظلام " **لا لأحجبة ولا للملاءات ولا للسجون القديمة**"[43]. أصبح كل ما هو فني مقدس وكل ما هو ديني مدنس بالنسبة لليلى.

تعشق ليلى الكتب وتراها ملاذها " **أصبح الكتاب رمزاً لرفضها اليومي الذي يحاولون فرضه عليها**"[44]. هو المركز الذي تتكئ عليه فهو الصديق الحميم رفيق الوحدة.

إنّ كلمة الموت وما تحمله من حمولة دلالية بالنسبة لشخص ليلى لا تحمل إلا دلالة واحدة تقول: " **الموت هو جمود الفكر. ولكي ترتقي أفكاري، احتاج لكلمات الآخرين وكتبهم**"[45] فحاجة ليلى ليست للمواعظ الدينية والأحكام الأبوية تنع نماذج نسائية تقليدية تجعل من المرء نكرة. إنّما هي بحاجة لفكر متحرر، وأفكار تذهب بالخيال بعيدا، القوة في العقل والدين يزيدها انغلاقا، فمثلا الحجاب هو غطاء للعقل لا للرأس،. فكل ما هو متعلق بالدين لا يعمل إلا من تجريم المرأة وتقزيم دورها في المجتمع، فهو يدنس وجودها بدل تقديسه هو ما أثبته المجتمع حين يخاف العرف، ويتجاهل الدين ويمارس السلطة باسم الدين .

3- هامشية الواقع تهميش للصحراء / الدين

توقّفت الكاتبة في "المهاجرون الأبديون" على رؤى متنوعة للواقع الاجتماعي والسياسي في منطقة الصحراء، شارك في إيضاحها مجموعة من الشخصيات (زهرة، جلول، سعدية، ليلى، يامنة، مريم، الطيب، الفرنسي) فالواقع الصحراوي تحكمه أيديولوجيات معينة تمارس على أرضه سواء المتعلقة بالدين، العقيدة، المجتمع،...وهو ما سمح للكاتبة من التركيز على ركنين أساسين هما: الصحراء التي أهملت وأصبحت عنوان الاضطهاد، والجهل، والحرمان، والدين كعائق في العيش، وأضحى التمرد عليه السبيل الوحيد لتحقيق الذات وإبرازها بسبب الأيديولوجيات السائدة في المجتمع والتي تتحكم في البنية الاجتماعية له .

تتميز الصحراء بجمالها وسحر مكانها وحضورها الطاغي في النصوص الروائية الجزائرية، وبخاصة في نص "مليكة مقدم" "المهاجرون الأبديون" كصورة مختلفة تماما؛ أين كشفت عن الجانب المظلم فيها، وهمشت سحرها واكتفت بذكر قسوة الطبيعة فيها ومساكنها المبينة بالطين والرمال وحرارة الطقس التي تحرق الوجوه مثل نار جهنم، فالصحراء لم تحمل للأنثى سوى القسوة، والتهميش ،وللرجل المتاعب، والتحجر الفكري.

والمعروف أنّ أول من تعرف على الصحراء "هم الرحالة العرب المسلمون مشارقة ومغاربة الذين ذكروا معالمها، وظروفها السياسية والحضارية في كتبهم من أمثال: ابن حوقل في القرن الثاني العاشر الميلادي، ابن بطوطة، ابن خلدون"[46]. ، تغنوا بجمالها وقدموا معلومات عن النظام الاجتماعي لشعوبها، ودونوا أخبارهم وأثنوا على مكارم أهل البادية والصحراء. كما أنّ هذه الرحالات التي قام بها العرب إلى الصحراء، زادت من أهميتها في عيون الآخر الغربي كان لا يمتلك معلومات عنها إلا ما حققه الرحالة العرب لأنّ "قسوة الطبيعة، هي التي شكلت سياجا منيعا ضد توغل الرحالة الأجانب في الصحراء. كما أن خوفهم على أنفسهم، وجلهم من أفاعي الصحراء، التي اشتهرت في خيالهم بطولها وضخامتها، وسرعة انقضاضها"[47]، بعد توغلهم في عوامل الصحراء أصبح ينظر إليها نظرة براغماتية لما تمتلكه من خيرات طبيعية. رغم الحياة القاسية والعواصف الرملية التي تميز المجتمعات الصحراوية قديما.

وعليه يرفض جلول الصحراء وينقد جوها القاسي، فالعيش بالصحراء أشبه بالخطيئة " **لا لأفران الصيف التي تترك الأجساد محبطة مثل قراب فارغة. لا لهذا الصقيع اللاذع يجمّد النفس وينهال كطائر كاسر على أهنأ نومة،... ومملكة الحجارة والغبار**"[48] هي نظرة سوداوية اتجاه الصحراء التي يرمز لها بالقوة، التي أصبحت توصف بأبشع الأوصاف ، هو كدليل على أنّ الأماكن الجميلة

التي تُنسى تُصبح بلا جو بلا حياة فقط جمود الفكر ما يميزها، فالفضاء الذي كان يميز جوها أصبح دلالة على السجن، وهو جعل شعبها يعيش على الهامش.

تمثل الصحراء في الحقيقة بعدا جماليا رمزيا، فالرمل وحده عالم خفي. لكن الكاتبة تعمدت إخفاءه والاكتفاء بسرد ما يحجب قدسيته. كما أن ما يحدث في الصحراء من تهميش دفع بكل من جلول وليلى وسعدية أن يثورا لتغير حال الصحراء والرقي بها ، لأن الرحالات التي كانت تميز الصحراء بالإضافة إلى حياة الترحال التي تميز أهل البادية، حملت لهم أراءً وأفكارا عن ما يحدث في العالم، لم الصحراء بقت مهمشة حتى بعد خروج الاستعمار؟.

كما حشرت الروائية الدين في زاوية ضيقة وسمت بالتخلف والقيد على الرغم من مكانة وقدسية الدين التي تنزه عن كل ما هو دوني، فالتصورات الوهمية التي يؤمن بها رجال العشيرة حرفت الدين، وأصبح وسيلة لإثبات عجز الآخرين أمام هذه القوى الأسطورية الخرافية التي تحولت إلى أيديولوجيات تحجب الممارسة الفعلية للدين، فيصبح مهمشا وغريبا عن المرء، ولا يحمل إلا الضعف الإنساني، والعجز فهو مجرد موروث يحظى بسلطة الأمر والنهي، ويستمد مشروعيته من السلطة الحاكمة في المجتمع .

لو عدنا إلى النص الروائي لوجدنا أن الكاتبة أشارت إلى كيفية تهميش "جلول" للدين حين سعى لتربية الخنزير مع العلم أنه من الحيوانات المنبوذة والمحرمة في الدين إلاّ أنّ هذا الأخير أصبح محل مدح، فلقب "أبو حلوف" هو أشبه بوسام يمنح لأديب نتيجة عمل مميز وكذلك كان حال "جلول الآجالي".

وأكثر ما زاد من غضب العشيرة وأحدث ثورة وغضب هو موت الحيوان، وإقامة قبر له تخليدا لذكراه وكأنّه بشر وهذا يتنافى تماما والدين الإسلامي، ويتعارض وتاريخهم العريق، وضد أخلاقهم ومبادئهم حين **"لفَّ الجسد بكفن من الحرير وجعل أطرافه على شكل جثة بشرية"**[49]. وبهذا جعل لقبره تخليدا لفكره وانتقاما من المجتمع الذي عارض كل أفكاره، وبهذه الفعلة انتقم لذاته من إنكار المجتمع له.، وحول الهامش إلى مركز والمركز إلى اللامركز عندما أعاد للحيوان قيمته أكثر، وعندما أصبح أولاده يلقبون بـ أبوحلوفيين بدل الآجاليين.

ترى البطلة "ليلى" أن الدين أصبح بطريقة أو بأخرى مكسبا لاستغلال الضعيف المهمش في المجتمع –المرأة، والمخالف لعادات وتقاليد العشيرة- فهي ظاهرة اجتماعية لم تخلف إلا العقد، والذل للمرأة بخاصة، فالدين يتدخل في تشكيل قناعات وسلوكيات المرأة في علاقتها بالآخر كما أنّه

يحدد مكانتها فالنساء " **يصعدن إلى الباص ملتحفات بملاءتهن. وعندما يترك الباص القرية يطوين الحجاب بعناية في حقائبهن لينتشلنه من جديد في المساء ويسترن وجوههن**"[50].

كان التّشدد يمارس على المرأة لجعلها تابعة فكريا لمعتقد ديني تلتزم به خوفا من سلطة الأب، تنفصل عنه وتلغيه في أول فرصة لها لتتحرر، فهي رافضة لهذا الموروث الديني الذي يكبح حريتها، ويسعى في نظرها لتشويه جمالها الفكري. فإذا كانت الأم يامنة تقدس الدين، وتحتقر كل معتقد يكون خارج الموروث الديني إلا أن ليلى تجد في الحجاب كفن تقول لوالدتها: "**الملاءة كفنك الأول. تدفنك حية**"[51] خطاب ليلى يتأسس على مبدأ الحرية، وأن لا شيء بقهر الذات سوى تتبع معتقد ديني لا يحمل إلا القهر والذل للمرأة فهو مجرد هامش في حياتها، وإنّ الآراء والأقوال التي تسمعها من العشيرة والأهل، لا تزيد واقعها إلا تهميشا وظلاما، وتحاصر أفكارها.

خاتمة:

ما نخلص إليه، إنّ الكاتبة ترى أن قانون المنطقة الصحراوية يسير وفق منطق العشيرة، لهذا المرأة ظلت مهمشة، ولا دخل لها في صنع القرار، ولا المشاركة فيه. باسم المركزية الذكورية.

- إنّ المجتمع يقصي المرأة من التاريخ فهي كانت مهمشة ومحكومة، ولذا كانت نسبة الأمية مرتفعة بالنسبة المجمع بعامة والمرأة بخاصة. وهو ما تحاول الكاتبة إثباته في روايتها.
- إن العدالة لا تتأسس بالكلمات إنّما بالفعل والثورة الفعلية ضد كل ما هو يتقاطع وتأسيس الذات الإنسانية كفاعلة في المجتمع .
- مفهوم النظام الأبوي ومركزيته هو حركة من أجل قمع المساواة الاجتماعية التي يسعى أفراد المجتمع لتحقيقها، وتحديد الرجل كمركز ووضع المرأة كهامش، ما هو إلى ثنائية القوي والضعيف التي تخضع لشروط صالحة لفئة (السلطة الأبوية) وفاسدة لأخرى (النساء).
- تفضيل الكاتبة لشخصية ليلى على باقي الشخصيات لأجل تكريس أهمية القراءة في تحرير العقل البشري، و قدرتها على إعادة بناء نموذجي يحتذي به الآخر. فشخصية بوحلوف المتمردة نموذج حي لعينة حية من أفراد المجتمع تسعى لتحرير ذاتها من قيود الماضي.
- يسعى أفراد المجتمع الواحد لأجل بناء أمة متعلمة ترتفع فيها نسبة المثقفين (ذكور وإناث)باسم الدين الإسلامي بغية إغلاق أي ثغرة تنقص من وعي أفراده وهذه طبيعة الإسلام، لكن الملاحظ أنّ الدين تحوّل لمجرد عقبة أنتجها المجتمع وفسرها حسب أولوياته ليحافظ على مكانته، ومركزه ويقلل من شرعية المرأة في التحرر. لذا وجبت الثورة الفكرية لتجاوز هذه الوضعية المأساوية، والخروج من هذه الدائرة المغلقة .
- تشكل الصحراء أحد أشكال الرفض التام للواقع الاجتماعي السائد، فالمكان معزول وكل ما يميزه أنّه بيئة قاسية، وسبب المعاناة غياب العدل والمساواة بها، وهذا راجع لسلطة المجتمع الذي

يفرض قيودا تتحكم بمصير النّساء وتمارس الإقصاء والتهميش في حقهن خضوعا لإيديولوجيا معينة ارتبطت بالدين والعرف

- إنّ نص "المهاجرون الأبديون" حامل لرؤى وأفكار متعددة لكل من الرجل والمرأة موزعة على طول المساحة السردية رغم اختلافها، إلا أنّها تتفق في ضرورة التحرر والثورة ضد كل ما هو مخالف لفعل التحرر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. مليكة مقدم : المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، الركز الثقافي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 2002،ص 8.
2. أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد 1، منشورات عويدات، بيروت-باريس،ط2، 2001، ص 210-211
3. إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، معجم اللغة العربية، القاهرة ، 1983، ص 215
4. أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت المجلد 4، باب الثاء، ص 108-111.
5. خليل سليمة، مشقوق هنية: الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، مجلة مقاليد، العدد 02، ديسمبر2011، ص 113
6. علي عبود المحمداوي مجموعة مؤلفين: الفلسفة والنسوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، سنة 2013، ص 340.
7. نيتشه: العلم والمرح، ترجمة وتقديم، حسنى بورقبة و محمد الناجي، إفريقيا الشرق ، ط1، سنة 1993، ص 72.
8. عبد العزيز العيادي، البشير ربوح: مجموعة مؤلفين: فلسفة الفعل من محاولات التأسيس إلى آفاق النقد، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2015، ص 373.
9. الذهبي اليوسفي: الأدب والأيديولوجيا في النقد العربي الحديث، دار المتوسط للنشر، تونس، ط1، 2016، ص95.
10. محمد سبيلا: الأيديولوجيا نحو نظريّة تكامليّة، ، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء، ط1، 1992،ص 32.
11. ميشيل فادية، الأيديولوجية وثائق من الأصول الفلسفية، تر، أمينة رشيد، سيد البحراوي، دار التنوير، بيروت، سنة 2009، ص 69.
12. حفناوي بعلى، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، دروب ثقافية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، سنة 2017،، ص 52.

-

هوامش المقال

* - مليكة مقدم: Malika Mokeddem" كاتبة جزائرية ولدت في 5 أكتوبر 1949 بالقنادسة، ولاية بشار، درست طب الكلى في جامعة وهران، ثم انتقلت إلى فرنسا سنة 1977، واستقرت بها نهائيا سنة 1979. توقفت مليكة عن ممارسة وظيفتها كطبيبة سنة 1985، لتتفرغ للكتابة، التي وجدت بها منفذا ، ومتنفسا للتعبير عن كل ما يؤجج بداخلها. سجلت حضورا قويا استثنائيا في الساحة الأدبية من خلال مجموعة أعمالها الروائية: رواية "المهاجرون الأبديون" (Les hommes qui marchent) الرواية الأولى لها سنة 1990 عن "رامزي"

(Ramsay) وعن دار "غراسي" (Grasset)، في 326 صفحة، وترجمت للعربية عن "المركز الثقافي العربي"، ترجمة "ماري طوق " سنة 2002 تحكي تاريخ الجزائر إبان الاستدمار، "**الممنوعة L'interdite**" سنة 1993، "**نزيد N'zid**" سنة 2001، "**المتمردة La transe des insoumis** "سنة 2003،"**رجالي Mes hommeS**" سنة 2005، "**أدين بكل شيء للنسيان Je dois tout à ton oubli**" سنة 2008، "**الراغبة La désirante**" سنة 2011

[1] - مليكة مقدم : المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، الركز الثقافي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 2002،ص 8.

[2] - أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، المجلد 1، منشورات عويدات، بيروت-باريس،ط2، 2001، ص 210-211

[3] - إبراهيم مدكور: المعجم الفلسفي، معجم اللغة العربية، القاهرة ، 1983، ص 215

[4] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، ترجمة ماري طوق، ص 8.

[5] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 8.

[6] - المصدر نفسه، 9

[7] - أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت المجلد 4، باب الثاء، ص 108-111.

[8] - ينظر: مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 10.

[9] - -المصدر نفسه، ص 11.

[10] - -المصدر نفسه، ص 11.

[11] - المصدر نفسه، ص 12

[12] - المصدر نفسه، ص 13

[13] - جان فرانسوا دورتي: فلسفات عصرنا تياراتها، ومذاهبها، أعلامها، وقضاياها، تر: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، سنة 2009،ص 434.

[14] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 15.

[15] - المصدر نفسه، ص 15.

[16] - المصدر نفسه، ص17

[17] - المصدر نفسه، ص 19.

[18] - المصدر نفسه، ص 33.

[19] - المصدر نفسه، ص 36.

[20] - المصدر نفسه، ص 42.

[21] - خليل سليمة، مشقوق هنية: الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، مجلة مقاليد، العدد 02، ديسمبر2011، ص 113

[22] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 37.

[23] - المصدر نفسه، ص 42.

[24] - علي عبود المحمداوي مجموعة مؤلفين: الفلسفة والنسوية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، سنة 2013، ص 340.
[25] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 53.
[26] - المصدر نفسه،ص 55.
[27] - المصدر نفسه، ص 55.
[28] - نيتشه: العلم والمرح، ترجمة وتقديم، حسان بورقبة و محمد الناجي، إفريقيا الشرق ، ط1، سنة 1993، ص 72.
[29] - المصدر نفسه،ص 128.
[30] - مليكة مقدم : المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 60.
[31] - المصدر نفسه، ص 66.
[32] - المصدر نفسه، ص 60
[33] - المصدر نفسه، ص 107-108.
[34] - المصدر نفسه، ص 233.
[35] - المصدر نفسه، ص 229.
[36] - عبد العزيز العيادي، البشير ربوح: مجموعة مؤلفين: فلسفة الفعل من محاولات التأسيس إلى آفاق النقد، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2015، ص 373.
[37] - الذهبي اليوسفي: الأدب والأيديولوجيا في النقد العربي الحديث، دار المتوسط للنشر، تونس، ط1، 2016، ص95.
[38] - محمد سبيلا: الأيديولوجيا نحو نظريّة تكامليّة، ، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء، ط1، 1992،ص 32.
[39] - مليكة مقدم: المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق، ص 18-19.
[40] - ميشيل فادية، الأيديولوجية وثائق من الأصول الفلسفية، تر، أمينة رشيد، سيد البحراوي، دار التنوير، بيروت، سنة 2009، ص 69.
[41] - المصدر نفسه، ص 212.
[42] - المصدر نفسه، ص 214.
[43] - المصدر نفسه،ص 232.
[44] - المصدر نفسه، ص 239.
[45] - المصدر نفسه، ص 246.
[46] - حفناوي بعلى، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحة وفي الكتابات الغربية، دروب ثقافية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، سنة 2017،، ص 52.
[47] 9 المرجع نفسه، ص 72.
[48] - مليكة مقدم، المهاجرون الأبديون، تر ماري طوق ، ص 17.
[49] - المصدر نفسه، ص 19
[50] - المصدر نفسه، ص 251.
[51] - المصدر نفسه، ص251.